Article

CC BY NC

jcms
مجلة الدراسات المقاصدية المعاصرة
JOURNAL OF CONTEMPORARY MAQASID STUDIES
journal.maqasid.org

Vol. 1, No. 1, 2022, p.1-30
journal.maqasid.org
DOI: 10.52100/jcms.v1i1.59
Received : August 15th 2021
Revised : Sept 21th 2021
Accepted : Sept 27th 2021

المنهجية المقاصدية: دليل للباحث في شبكة المقاصد البحثية

Jasser Auda
Maqasid Institute
jauda@maqasid.org

الملخص

غرض هذه المقالة هو عرض خطوات المنهجية المقاصدية في إطارها العام، تلك الخطوات التي يسلكها الباحثون في معهد المقاصد وغيرهم من المهتمين، والذين يشكلون مجموعات بحثية تتغيا الإجابة عن أسئلة علمية وعملية معاصرة من خلال منطلق المنهجية المقاصدية الإسلامي، تلك المنهجية التي فصلناها في كتاب "المنهجية المقاصدية: نحو إعادة صياغة معاصرة للاجتهاد الإسلامي" (عودة، ٢٠٢١)، والمحصلة المنشودة هي الوصول إلى نظريات ومبادئ حاكمة على اجتهاد في دراسات التخصصات ودراسات الظواهر، والتي ينبنى عليها تقدير المصالح والمفاسد أو تقرير الأحكام الشرعية حسب طبيعة البحث. وفي هذا السياق نعرض الأطر العامة والعلاقات البينية للتصور المركب في قلب الخطوات المنهجية المقاصدية، والذي تتمثل عناصره في: المقاصد والمفاهيم والفئات والسنن والقيم والحجج والأوامر، والتي تستنبط من كتاب الله تعالى وبيانه من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم لتحكم على التصور والتصرف.

الكلمات المفتاحية: المنهجية المقاصدية، شبكة المقاصد البحثية، التصور المركب، الاجتهاد.

Abstract

The current study aims at presenting the steps of the maqasid methodology in its general framework applied by researchers in the Maqasid Institute and other interested individuals who are assembled in research groups and networks that seek answers to contemporary practical and scientific queries through the Islamic approach of the maqasid methodology illustrated in the book entitled *Re-envisioning Islamic Scholarship: Maqasid Methodology as a New Approach*. The purpose of this methodology is to generate theories and principles that guide ijtihad (independent reasoning) in disciplinary and phenomena studies upon which the judgement of interests and harms is based، as well as determining the legal rulings according to the nature of the research. In this regard، we introduce the general frameworks and interconnectivities of the complex worldview of the maqasid methodology and its elements namely، objectives، concepts، groups،

Corresponding Author
Name : Jasser Auda
Email : jauda@maqasid.org

universal laws, values, proofs, and commands derived from the Holy Qur'an and the Sunnah of Prophet Muhammad (PBUH) to govern the maqasidi-based envisioning and action.

Keywords: maqasid methodology; maqasid research network; complex framework; ijtihad.

الفرق بين المنهجية والتصور النظري

التصور النظري يتركب من سباعية من العناصر استنبطناها من دراسة مقاصد الوحي من خلال دورات التدبر كما نفصل تاليًا، وهذا التصور في تركيبه الكلي من معاني الوحي يتمثل فيه الدين بشموله وتفاصيله جميعاً أو يشكل – بالمصطلح المعاصر – رؤية كونية كاملة، ولكن المتدبر للوحي لا يصل إلى كل العناصر دفعة واحدة بل المتدبر في عملية مستمرة لاستكشاف الوحي الكريم، تتنامى حصيلتها كلما اعتنى بمعاني التصور وتوسع إدراكه لعناصره التفصيلية وعلاقاته البينية، فإذا تصدى المتدبر لعملية الاجتهاد المقاصدي بناء على قصد معين فإنه يختار جزءًا من تصور الوحي المركب الكلي ويضعه كتصور مركب للقضية أو السؤال المطروح وذلك نظرًا لمحدودية القدرة البشرية على الإحاطة بكل العلاقات التي لا تتناهى في الوحي.

أما المنهجية فهي مصدر صناعي من (منهج) وأصله (نهج) – اسماً أو فعلاً – بمعنى الالتزام بطريق واضح واتخاذ هذا الالتزام سمتاً للباحث يؤكدّه ويبالغ فيه، ومعالم هذا الطريق هي مجموعة الخطوات المتشابكة التي يسلكها المجتهد من أجل الإجابة عن الأسئلة أو معالجة القضايا في مجالات الدراسة المختلفة، والمقاصدية هي كذلك مصدر صناعي من (مقاصد) وأصلها (قصد) – اسماً أو فعلاً – بمعنى الالتزام بسمت اعتبار المقاصد مع تأكيده والمبالغة فيه. والتصور المركب هو شبكة من المعاني التي تنتج من دورات التدبر في الوحي الكريم، فإذا استقر التصور المركب للسؤال البحثي تيسر نهج الخطوات للوصول إلى الإجابات والنظريات والمبادئ بناء على ذلك التصور.

دورات التدبر

كان البدء بالعزم على استكشاف الوحي على المستوى المنهجي، فسلكنا خطوة ينبغي لكل إنسان – فضلاً عن المجتهد – أن يتخذها ديدناً في رحلته البحثية، ألا وهي دورات للتدبر في كتاب الله ومعه ما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم من حديث. وهذه الدورات هدفها أن نبحث عن عناصر التصور المركب أو مكونات التصور النظري للمسألة – أي مسألة – كما يرسمها الوحي.

Copyright © 2022 JCMS

وأهمية التصور معروفة في علوم الأصول والمنهجيات كلها، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره كما تقول القاعدة، ولكن (التصور المركب) الذي نسعى إليه هو تعريف أبعد من التعريفات الحدّية والرسمية والاسمية والوظيفية المباشرة، ويختلف كمصطلح جديد أردنا به أن يدلّ على معنى جديد.

أما التصور المركب لغةً فقد اقتبسناه من قول الله تعالى: (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ – الانفطار ٨)، فالإنسان نفسه صورة مركبة، وتصورها لا يدرك بتعريف بسيط أو نظرة جزئية وإنّما يحتاج إلى تركيب عدد من العناصر والأبعاد التي تتكامل لتؤدي ذلك التعريف، ويدلّ على ذلك إضافة لفظة (المركب) إلى مصطلح التصور، حتى يتولد وينشأ التصور الكلي بناء على تفاعل الجزئيات وتكاملها وما تقصد إليها بمجموعها، اتساقاً مع المنطق التواصلي المقاصدي.

وأما التصور المركب نفسه فقد سألنا سؤالاً منهجياً متعلقاً بالآية المذكورة، ألا وهو: ما هي مكونات وأبعاد تلك الصورة المركبة للإنسان كما يكوّنها الوحي في وعي المتدبر له؟ وبحثنا في تصور الوحي للإنسان إلى أن خرجنا من محاولة الإجابة عن هذا السؤال المركزي بعلم من الوحي أعاد صياغة جزء مهم من رؤيتنا الكونية، تلك الرؤية التي شابتها شوائب كثيرة في تصور (الإنسان) بكل أبعاده في العلوم المعاصرة المختلفة، كعلم النفس وعلم الإنسان والاقتصاد والاجتماع والتاريخ والطب والأحياء وغيرها من العلوم، وهي تعريفات كلها جزئية وكثير من معانيها منحرف عن التعريف أو التصور للإنسان كما يعلمنا الوحي إياه.

ثم قسنا على نفس تصور تركيب الإنسان كافة (الصور المركبة) التي فطرها الله تعالى وذكرها أو أشار إليها في كتابه الكريم لتركيب المخلوقات بأنواعها الطبيعية والصناعية، بل وبحثنا كذلك في تصور التركيبات المعنوية في الوحي من قصص وأمثال ووعد ووعيد ورسالات وغير ذلك من موضوعات كثيرة وصور مركبة ندركها من خلال كلمات الوحي وشبكات معانيه، وقسنا على ذلك تحليل مماثل لتركيب السور وفقراتها، ووضع ما صح من الحديث الشريف على صاحبه الصلاة والسلام في سياق التحليل، وسألنا بعدها سؤالاً منهجياً على مستوى تأسيسي أعلى من تلك التفاصيل، ألا وهو: ما هي المكونات المشتركة في كل تلك الصور المركبة في الوحي لكل هذه المعاني والمباني؟ أو: كيف يعلمنا الوحي أن نتصور شيئاً ما؟

وللإجابة عن هذا السؤال عدنا إلى مفتاح العلم كله، وهو العلم بالله تعالى، أي إجابة: كيف يعلمنا الوحي عن الله سبحانه وتعالى؟ ما هي المعاني التي تشكل معرفتنا بالله تعالى على المستوى

Copyright © 2022 JCMS

المنهجي؟ وحين اتجهنا إلى كلام الله تعالى باحثين، وبدأنا بالآية الأولى بترتيب المصحف (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ – الفاتحة ١) ثم بترتيب النزول (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ – العلق ١)، وجدنا البداية بـ (الاسم)، وأسماء الله تعالى (الله) ثم (الرَّحْمَٰنِ) ثم (الرَّحِيمِ) وصلتنا بالأسماء الأخرى، (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا – الأعراف ١٨٠)، كالملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، إلى آخر الأسماء التي بها نتعرف عليه سبحانه.

ثم إذا تتبعنا المنطق التواصلي – مع دورات التدبر في الكتاب الكريم – وجدنا صلة بين هذه الأسماء الحسنى وتعليم الله تعالى لآدم: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا – البقرة ٣١)، واستنبطنا أن الأسماء إذن هي مفاتيح العلوم، ولها صلة بالوسوم أو السيَم التي تدلنا على معاني مركبة من خلال النظر والفكر، كما قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ – الحجر ٧٥)، و (تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ – البقرة ٢٧٣)، ولها علاقة بكلمات الله تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مدداً – الكهف ١٠٩)، وعرفنا أيضاً أن الأسماء نفسها ينبغي أن تكون من الله تعالى حتى يكون لها سلطان من الحق، وإلا فهي مخترعات وظنون من البشر تصيب وتخطئ. (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ – النجم ٢٣)، فوصلنا إذن من هذا البحث إلى أن الاسم أو الوسم يدل على ما يمكن أن نطلق عليه باللغة المنهجية المعاصرة: المفهوم، وتولد عندنا أن المفاهيم هي من العناصر التي يقصد البيان الإلهي منهجياً إلى تعليمنا إياها حتى نتصور الأشياء تصوراً سليماً، وكذلك تصحيح المفاهيم إذا انحرفت عن أصولها.

ثم انطلقنا في دورات التدبر مستمرين في رحلة التعرف على الله تعالى ومستصحبين المنطق التواصلي المقاصدي، فوجدنا معنى المرادات الإلهية واضحاً في التعرف على الله تعالى، فهو يذكر في مواضع كثيرة من كلامه مراداته من أفعاله تعالى بما فيها تعليمنا عنه سبحانه: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ – الحديد ٢٢–٢٣)، فعلّمنا عن هذا الكتاب لغرض، (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ – الذاريات ٥٦)، فعلّمنا أنه خلقنا بغرض عبادته، (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ – البقرة ١٨٥)، فيقصد بنا لليسر ولم يقصد لنا العسر، وهكذا في خلق الليل والنهار بقصد السكن وابتغاء الفضل ولنعلم عدد السنين والحساب وللتفكر والتدبر والتسخير،

Copyright © 2022 JCMS

ولكي نشكر ونعبد ونؤمن ونتذكر، وخلق الجبال رواسي، والرياح لواقح ومبشرات ولتجري الفلك في البحر ولنبتغي من فضل الله، إلى آخر ما ذكرنا سابقاً. فوصلنا إذن إلى أن المقاصد هي من تلك العناصر المنطقية والضرورية لتصور سليم، وتحقيقها في الواقع هو من المقاصد المنهجية القرآنية.

كذلك لاحظنا أن المفاهيم التي تتعلق معانيها بالله سبحانه وتعالى كالإيمان والكفر والنفاق والإحسان والصدق والعلم والحكم، ترتبط في التصور الذي يعلمنا القرآن إياه بفئات تشترك مع تلك المفاهيم في أصولها اللغوية وفي دلالاتها المعنوية، كالمؤمنين والكفار والمنافقين والمحسنين والصادقين والعلماء والحكام، وهكذا، ولكل فئة تعلق بمقاصد قد تختلف عن فئات أخرى. فوصلنا أيضا إلى أن الفئات هي من تلك العناصر المنطقية والضرورية لتصور سليم، وتصنيفها من المقاصد المنهجية القرآنية.

كما وجدنا مع دورات التدبر أن أسماء الله تعالى ترتبط أيضاً بمجموعة من القيم التي تتجلى في حياة الإنسان، بل إن الله تعالى ينص على هذا الربط في عدد من المواضع من التنزيل الحكيم، كما قال تعالى: (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ – النور ٢٢)، وذكّر تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بنعمته عليه فقال: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى – الضحى ٦–٨)، ثم أمره أن يحسن إلى نفس أصناف الناس كما أحسن الله إليه فقال سبحانه: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)، ثم إن من كلام النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال – مسلم ٩١)، إلى غير ذلك، فالقيم إذن هي من تلك العناصر المنطقية والضرورية لتصور سليم، والتأسي بها مقصود منهجيًا.

بالإضافة إلى ذلك لاحظنا أن من المعاني المركزية في النسق القرآني فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى معنى السنن الإلهية، وهي النظام المتكامل من القوانين التي جعلها الله تعالى بقدرته وتقديره حاكمة على حركة الكون في كل أبعاده المادية ومجتمعات الإنسان كذلك، وهي لا تتبدل ولا تتحول حسب التعبير القرآني، (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا – فاطر ٤٣)، (سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا – الفتح ٢٣). والسنن الإلهية لها أبعاد وتجليات نعرضها لاحقاً.

وكما نسب الله تعالى السنن إلى نفسه نسب كذلك الحجج إليه سبحانه، فقال: (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ – الأنعام ١٤٩)، وقال: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ – الأنعام

Copyright © 2022 JCMS

٨٣)، كما نسب – في نفس الباب – الآيات والبراهين إلى نفسه سبحانه، فجمعنا ذلك في أصل سميناه الحجج يشتمل على العمليات المنطقية العقلية والحجج والبراهين والأدلة التي هي جزء من التصور المركب للأمور، والتي يقصد القرآن إلى إقامتها على الناس.

وأخيراً وليس آخراً، فالأمر مفهوم قرآني كبير وهو أيضاً مما نسبه الله تعالى إلى نفسه، فقال: (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ– النحل ١)، وقال في معنى آخر للأمر: (الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ – البقرة ٢٧)، وقال في معنى الأمر المباشر أي الذي يتعلق بالأفعال امتثالاً لهذا الأمر: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ – النساء ٥٨)، وقال: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ – النحل ٩٠)، فأمر ونهى، كما يتصل الأمر والنهي بمفاهيم أخرى كالتحريم (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ – الأنعام ١١٩)، والوصية (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ – النساء ١١)، والفرض (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ – التوبة ٦٠)، والكتابة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ – البقرة ١٨٣)، والحد (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا – البقرة ٢٢٩)، وغير ذلك، وهذه الأوامر والنواهي لها تعلق بحسن وقبح الأشياء، وبالعلم والعمل، مما أوصلنا إلى جعل الأوامر والنواهي كأصل سابع وأخير في التصور المركب للأشياء، وتعلق ذلك التصور بمقصد الالتزام بتلك الأوامر والنواهي.

وقد طبقنا نفس التحليل لعناصر التصور على عدد من موضوعات القرآن الكريم فلم تخرج استنتاجاتنا عن السباعية التصورية التي وصلنا إليها، حتى وصلنا إلى ما سميناه بالمقاصد المنهجية للوحي، ألا وهي: تحقيق المقاصد، وتصحيح المفاهيم، وتصنيف الفئات، ومراعاة السنن، والتأسي بالقيم، وإقامة الحجج، والعمل بالأوامر. وقد استقرينا خلال رحلة البحث تحت المستوى المنهجي المتمثل في هذه المقاصد السبعة شبكات من المقاصد في مستويات مختلفة من الموضوعات والتخصصات، وأنتج هذا البحث كذلك ما سميناه عناصر التصور المركب أو السباعية التصورية (كما في الشكل)، ألا وهي المقاصد، والمفاهيم، والفئات، والسنن، والقيم، والحجج، والأوامر.

Copyright © 2022 JCMS

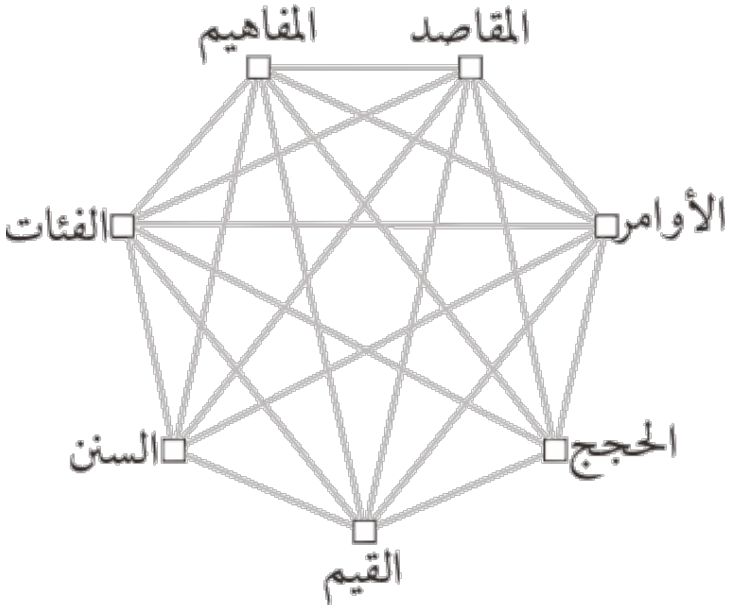

شكل ١_ شبكة التصور المركب

وجدير بالذكر هنا أن تدبر السنة مع القرآن وربط الأحاديث شبكياً بالآيات ومعانيها يحتاج إلى فقه خاص وإلى تحديد في بعض الأطروحات الأصولية التفسيرية والحديثية التي يحتاج بسطها إلى بحث آخر، ولكن الشاهد هنا هو أهمية تتبع الدراسات القديمة والمعاصرة لمن ضم المكررات والأطراف مما صح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث حتى يصل مجموع روايات السنة إلى حوالى ثلاثة آلاف حديث كما ذكر أهل هذا الفن، ثم وصل هذه الأحاديث جميعاً بما يتعلق بها من آيات الله تعالى ومن عناصر التصور السبعة المذكورة، وكذلك عرض روايات الحديث على القرآن حتى يتسق الحكم على الحديث والفهم له مع محكمات الكتاب العزيز ولا تتناقض معها.

ودراسة التواصل بين روايات الحديث المتعلقة بنفس الموضوع لابد أن تسلط الضوء على اعتبار السياقات التاريخية وفهم الزوايا الروائية للحديث الواحد الذي رُوي مقطعاً لأغراض التبويب أو لأسباب تاريخية مختلفة، ولا يصح هنا التقيد بالتقسيمات الفقهية التقليدية في تبويب الأحاديث عند الاستدلال بها، بل لابد من وضعها حيث تحتمل معانيها في شبكة معاني القرآن التي يبنيها الباحث، ولابد كذلك من التفريق في الأحاديث الموقوفة بين قصد الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم وبين رأي الراوي وانطباعاته الخاصة، مع حساسية خاصة في نقد الرجال والمتون أوصلتنا إليها دورات التدبر لروايات الحديث في ضوء محكمات القرآن، خاصة في موضوعات ثلاثة، ألا وهي: السياسة والمرأة والإسرائيليات، وللتفصيل مجال آخر.

Copyright © 2022 JCMS

مكونات التصور المركب

وقد انتخبنا مصطلحات التصور المركب بين أربعة مصطلحات منصوص عليها بحروفها في الوحي، ألا وهي السنن الإلهية في مثل (وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا – الأحزاب ٦٢)، والفئات في مثل (أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ – الأنفال ١٦)، والحجج في مثل (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ – الأنعام ٨٣)، والأوامر في مثل (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا – النساء ٥٩)، وثلاثة مصطلحات أخرى مستنبطة بمعانيها وشائعة في دراسات الفقه والفكر الإسلامي المعاصر، ألا وهي: المقاصد والمفاهيم والقيم، وهي ليست في الوحي بنصها وإن كانت فيه بجذور كلماتها وأصل معانيها، أي (قصد) في مثل (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ – النحل ٩)، و(فهم) في مثل (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ – الأنبياء ٧٩)، و(قيم) في مثل (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ – البينة ٣).

والأطر التالية ليست (تعريفات) حدية يقصد بها الحصر بشكل جامع مانع، بل منهجيتنا في التعريف مبنية على منطق التواصل المركب وسنة الله تعالى في تولد المعاني الكلية من دراسة الجزئيات، والتعريف الكامل إذن لتلك العناصر السبعة – أي المقاصد والمفاهيم والفئات والسنن والقيم والحجج والأوامر – يتمثل في شبكات متداخلة من المعاني فيها حقول ذات حدود مرنة قد تُتصور بشكل مختلف في سياقات مختلفة تتنزل فيها المعاني المجردة، وبينها تقاطعات كذلك لأن المعنى الواحد قد لا يقع بالضرورة تحت عنصر معين متميزاً عن بقية العناصر من كل وجه.

فالإطار العام لتصور المقاصد أنها تتمثل فيها المرادات والغايات التي نفهمها من كلام الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نصًا أو استنباطًا من السياقات اللغوية أو الموضوعية، ولو أن الاستنباطات البشرية تخضع لهيمنة المقاصد المنصوصة، والتي يقصد الوحي الكريم إلى بيانها وتحقيقها في الواقع المعيش.

والإطار العام لتصور المفاهيم هي أنها تتمثل في الكلمات العربية التي يعطيها سلطانها ويحدد دلالاتها كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، منصوصًا عليها بحروفها أو مستنبطة من معاني الوحي للدلالة على معنى معين، ولو أن إدراك المفاهيم البشرية المستنبطة يخضع لهيمنة المفاهيم المنصوصة. ويقصد الوحي إلى بيان المفاهيم وتصحيح ما ينحرف فهمه منها.

Copyright © 2022 JCMS

وأمّا الإطار العام لتصور الفئات فإنّها تتمثل فيها المجموعات الإنسانية وغيرها من الفئات من كل ما خلق الله تعالى، والتي يسميها ويحدد أعضاءها وصفاتهم التي تجمعهم كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، سواء منصوصًا عليها بأسمائها أو مستنبطة من معاني الوحي، ولو أن إدراك الفئات البشرية المستنبطة كذلك يخضع لهيمنة الفئات المنصوصة، ويقصد الوحي إلى بيان الفئات وتصحيحها وتصنيفها في الوعي الإنساني.

ويعرّف الإطار العام لتصور السنن الإلهية على أنها تتمثل فيها القوانين المطردة التي جعلها الله تعالى نظامًا في خلقه في حركة الطبيعة أو حياة الناس، كما تظهر في كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم منصوصًا عليها أو مستنبطة من معاني الوحي، ولو أن إدراك السنن المستنبطة يخضع لهيمنة السنن المنصوصة، ويقصد الوحي إلى بيان السنن ومراعاتها في التصور والتصرف الإنساني.

كما يعرّف والإطار العام لتصور القيم على أنها تتمثل فيها أنواع الخير من نفع وخُلق وجمال، والتي يحرص عليها الإنسان وتؤثر في أولويات تصرفاته، كما تظهر في كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نصًا على معانيها أو مستنبطة من معاني الوحي، ولو أن إدراك القيم المستنبطة يخضع لهيمنة القيم المنصوصة، ويقصد الوحي إلى بيان القيم والتأسي بها في الواقع المعيش.

وأمّا بالنسبة وللإطار العام لتصور الحجج فتتمثل فيها الآيات والعلامات على حقيقة البرهان أو قل صحة العمليات المنطقية كما ينص عليها أو تستنبط من كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، على أن إدراك الحجج المستنبطة كذلك يخضع لهيمنة الحجج المنصوصة، ويقصد الوحي إلى بيان الحجج وإقامتها في عقل وقلب المتلقي للوحي.

وأخيرًا، فالإطار العام لتصور الأوامر – وما يقابلها من النواهي – أنها تتمثل أصلاً في كل معاني (افعل) و(لا تفعل) المتعلقتان بالسلوك البشري، كما يظهر في كلام الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، نصًا مما يدل على الأمر والنهي أو استنباطًا من السياقات اللغوية أو الموضوعية، على أن إدراك الأوامر المستنبطة يخضع كذلك للأوامر المنصوصة المحكمة، والتي يقصد الوحي إلى بيانها والعمل بها في الواقع المعيش.

Copyright © 2022 JCMS

الخطوات المنهجية العامة للاجتهاد

الخطوات المنهجية التالية تقترح سبلًا لاستنطاق القرآن الكريم لبناء التصور المركب وتنقيحه وتفعيله، وهذه الخطوات ليست عمليات جامدة يسلكها المجتهد على أنها خوارزمات حتمية، بل هي معتمدة على قدرات المجتهد ومجال البحث، وهي مسارات متشابكة متصلة ببعضها دون حتمية لترتيبها كما يظهر في الشكل التالي، وقد مررنا بهذه الخطوات في أبحاثنا المقاصدية حسب هذه المنهجية في ترتيب أقرب ما يكون إلى التوازي بينها جميعاً. وكان دليلنا في تحديد تلك الخطوات المنهجية هو الوحي نفسه، إذ تعلمنا منه أهمية إخلاص القصد والنية لله كأولوية في كل عمل، ومنهجية التدبر بربط آيات الكتاب ببعضها عن طريق الإحالات الداخلية لمعانيها على بعضها، وكذلك طريقة ربط الكتاب بعضه ببعض وببيانه من السنة، والتأسي بأسوة الرسول الحسنة عليه الصلاة والسلام، وتعلمنا منه أيضاً منهجية الحوار مع المخالف والمجادل ببيان الحق وردّ الباطل، ومحاولة الانطلاق من مشتركات معنوية وعقلية دون تنازل عن الثوابت والأصول، وكذلك التراوح في الحجاج بين الجزئيات والقضايا الخاصة وبين الكليات والمبادئ الحاكمة.

وتعلمنا كذلك أن نتجنب الأخطاء المنهجية التي حذرنا منها الوحي الكريم، مثل الاجتزاء المخلّ أو التعضية، والتقليد الأعمى أو الاتباع دون برهان، والتأويل الذي يبعد عن المحكمات ويدخل من المتشابهات إلى مساحات التحريف المغرض، وكذلك خطأ فصل العلم عن العمل كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والتفرق والاختلاف المذموم والتنازع، وكتمان الحق أو بيعه بثمن قليل وكل ثمن للحق قليل، إلى آخر المحرمات المنهجية التي دلنا عليها الوحي. وأدخلنا كل ما تعلمناه من دروس الوحي المنهجية في صياغة الخطوات المنهجية كما تظهر في الشكل التالي.

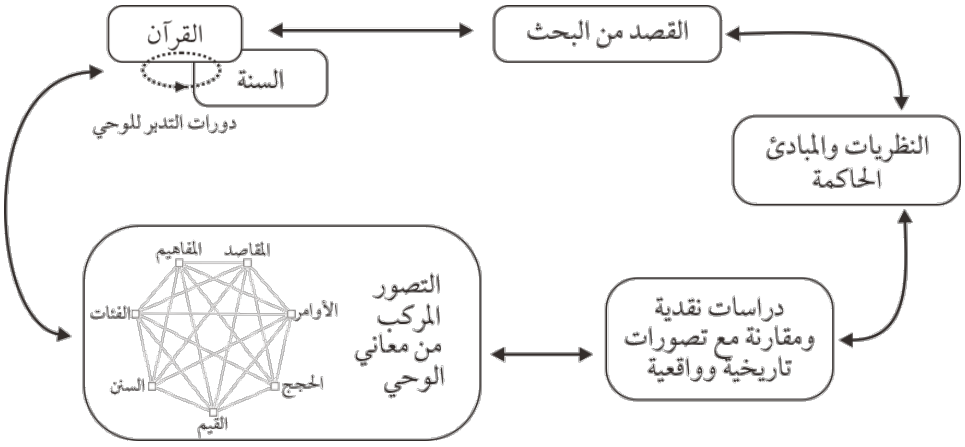

شكل ٢_ الخطوات المنهجية العامة

Copyright © 2022 JCMS

وما نقدمه تعليقاً على هذه الخطوات المقترحة هو مفاتيح منهجية، ذلك لأنه ليس هناك خطوات تفصيلية يمكن أن نصفها بدقة ليحلل بها الباحث كلام الله تعالى فيَصل بالضرورة إلى مستوى من الفهم يستخلص به نتائج حسب خطة موضوعة سلفاً، فكلام الله تعالى ليس ككلام البشر، وآليات التحليل اللغوي الكمية أو الكيفية مفيدة ولكنها لا تؤدي بالضرورة إلى استنتاجات سليمة كما تؤدي في تحليل النص البشري، وما يفتح الله لأولي الألباب والمتقين والمضطرين والمتهجدين وقارئي الفجر وأصحاب ناشئة الليل والتالين حق التلاوة من فهم أو عبرة أو معنى بسبب التدبر إنما هو من محض كرمه وجوده ورزقه لعباده ليس إلا، وقد يكون جزاءً ورزقًا للمجتهدين حسب نياتهم وجهدهم واجتهادهم وإخلاصهم، وهو سبحانه أعلم بهذا.

أولًا: القصد البحثي

لابد أن تبدأ المقاربة المقاصدية بقصد ونية، (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ – النحل ٩)، أي أن يتوجه الباحث بقلبه ونيته مبدئياً إلى معنى معين من المعاني المقصودة في الوحي، معنى انقدح في عقله وقلبه أنه هو هدف الدراسة الذي تتغيا تحقيقه، وكما قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات – البخاري ١)، ويمكن أن يبدأ المقصد المقترح عاماً وعالياً كعبادة الله تعالى – وكل المقاصد تنتهي إلى عبادة الله على أي حال – أو إقامة القسط أو إصلاح الأرض أو حفظ النفوس أو العقول، ثم يتفكر الباحث وهو يتدبر القرآن فيطور المقصد العام إلى مقصد أو بضعة مقاصد محددة يستهدف تحقيقها في الواقع.

وإذا كانت النية محلها القلب، فإصلاح هذا القلب وتزكيته من متطلبات النجاح في هذه الخطوة، فالذي يقرأ القرآن وهو مؤمن مقسط لنفسه وللآخرين غير الذي يقرأ وهو غير مؤمن ظالم لنفسه وللآخرين، (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا – الإسراء ٨٢)، فتزكية القلب هنا لا تنفصل في التصور الإسلامي عن المتطلبات المنهجية للبحث والفقه في كلام الله سبحانه، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ – آل عمران ٧)، وقال: (لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا – الأعراف ١٧٨)، وقال: (وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ – الإسراء ٤٦)، ومفهوما القلب والتقوى في الوحي هما مفهومان مركبان وتأسيسيان في هذه الخطوة.

Copyright © 2022 JCMS

والبدء بالقصد البحثي يختلف عن البدء بـ (إشكالية بحثية) كما هو شائع، ذلك لأن الإشكالية التي يتوهمها الباحث قد تنحرف الأفهام في تعريفها نظراً لأن التصور للواقع ما زال لم يُبحث بما يكفي بعد. ونرى في الواقع البحثي الإسلامي أبحاثاً تبدأ من تصور إشكاليات موهومة ليس لها وجود حقيقي حسب التصور الإسلامي السليم، بل هي أوهام أثارها الإعلام بألوانه المختلفة في أذهان الناس من لا شيء، فأصبحت قضايا تقوم لها المبادرات وتبحث فيها الجامعات، أو قد يكون لها تمثل حقيقي في الواقع ولكنها عُرّفت خطأً بناء على معايير لا تنطلق من التصور الإسلامي أصلًا، ولا تصفها مفاهيمه ومقاصده وفئاته وقيمه وحججه أو تتناقض مع أوامره ونواهيه. أما إذا بدأ البحث بمقصد سليم وتبلورت مقاصده الفرعية بدقة، فسوف ينضبط تعريف الإشكاليات البحثية تباعاً لأن تحقيق المقاصد سيكون هو المعيار الذي يدل على وجود الإشكالية أصلاً من عدمها، ويكون الحل لهذه الإشكالية هو اقترابنا من تحقيق المقاصد المنشودة.

مثلاً، هناك فرق في أن نبحث في المجال الاقتصادي بقصد تحقيق هدف (نمو الدخل القومي)، والذي قد ينفصل في الواقع عن متطلبات الشرع وعدالة التوزيع للثروات العامة ومصلحة الناس خاصة في الدول ذات المنظومات الاقتصادية الجائرة، وبين نفس البحث لتحقيق هدف (محاربة الفقر) وهو مقصد مختلف ولا يتصل بالضرورة بالدخل القومي ارتفاعاً أو انخفاضاً، بل يتصل تحقيقه بمتطلبات الشرع وعدالة التوزيع للثروات ومصلحة الإنسان في الواقع المعيش.

وهناك فرق في البحث في المجال الدوائي بقصد تحقيق هدف (حماية الملكية الفكرية)، وهو هدف بعضه قد يكون من الحقوق المشروعة وبعضه من الاحتكار الظالم والضرر البيّن بالضعفاء والمستضعفين أفراداً ودولاً، وبين نفس البحث بقصد (اكتشاف أدوية جديدة) أو (ضمان حق العلاج)، وهو هدف مختلف ولا يتعلق بالضرورة بالملكية الفكرية إلا في الأدلوجات الاقتصادية العلمانية.

وهناك فرق في البحث في المجال القانوني بقصد تحقيق هدف (سيادة القانون)، وهو هدف مشروع فقط إذا كان ذلك القانون عادلاً ويطبق على كل الناس، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ – النسائي ٤٩١٦)، ولكن (سيادة القانون) هدف غير مشروع إذا كان القانون جائراً أو كان وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل أو الفساد في الأرض، وبين نفس البحث بقصد تحقيق (عدالة

Copyright © 2022 JCMS

القانون) في أي من صورها. وكذلك البحث بقصد تحقيق (سيادة الدولة) في مقابل (عدالة الدولة) في المجال السياسي، أو (حرية السوق) في مقابل (عدالة السوق) في المجال السياساتي، وهكذا.

وهناك بحث في موضوع يطلقون عليه (التعامل مع النوع) أو (حقوق الجندر) أو (مشكلة الأبوية) أو ما إلى ذلك، والذي يؤدي بالباحث إلى الانحراف عن التصور الإسلامي حتى قبل أن يبدأ البحث، إذ أن (الجندر) في اللغات اللاتينية هو تعريف اجتماعي أو شخصي لأنواع مختلفة من ممارسة الفاحشة يعرّفون من خلالها (نوع) الإنسان على أنواع كثيرة وليس كما خلقه الله تعالى بين ذكر وأنثى، و(الأبوية) عندهم تشمل كل سلطة اجتماعية للرجال مشروعة أو غير مشروعة، فهناك فرق بين هذه الموضوعات وبين البحث نفسه من خلال مقصد (مصلحة الأسرة) أو (حقوق المرأة) أو (تحقيق العفة) أو (العدل بين الرجال والنساء) أو (عدم التعسف في استعمال الحق)، أو ما إليها من مقاصد وزوايا للنظر ستؤدي بالباحث بالضرورة إلى نتائج وتعريف للإشكاليات البحثية بشكل مختلف.

وهناك فرق في البحث في مجال الفتوى في الذبح الحلال – كمثال أخير – بهدف تحقيق عدد معين من الذبائح كل يوم، والذي قد يؤدي بالباحث إلى أن يتجاوز الضوابط الشرعية ولو التزم بعض الشكليات، وبين نفس البحث في نفس الموضوع ولكن القصد البحثي هو (تدجين الأنعام أو الطيور مع مراعاة السنن الإلهية في أماتها)، مما هو أقرب للتصور القرآني والتصرف النبوي على صاحبه الصلاة والسلام، وسيؤدي بالباحث إلى فتاوى وتوصيات مختلفة، بل وتعريف للإشكاليات البحثية أولاً بشكل مختلف.

ثانياً: دورات التدبر في الوحي

الأصل في رحلة التدبر في الوحي هو أن يدرك القارئ لكلام الله تعالى أن التدبر ليس فقط جائزاً بل هو فريضة فرضها الله على الناس – مسلمين وغير مسلمين، فقد قال تعالى في غير موضع ناعياً على الذين لا يتدبرون القرآن ومعاتباً: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ – محمد ٢٤)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في الآخرة: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا – الفرقان ٣٠)، وغير ذلك كثير وواضح في كلام الله.

Copyright © 2022 JCMS

ولكن هناك خوف من تدبر القرآن عند عموم المسلمين – للأسف – نظراً لتاريخ طويل من الاستبداد الديني، فقد اتبع بعض أهل العلم على مدار القرون أساليب سدنة بعض الديانات الأخرى وصوّروا القرآن للعامة على أنه فقط للدارسين المتخصصين كوسائط بينهم وبين الله تعالى، بل وحذروا عموم الناس من تلاوته إلا شكلياً كنوع من العبادة المحض، بحجة تجنب الخطأ في فهمه، والخطأ وارد فعلاً على المجتهد المتدبر، ولكن هناك فرق بين التحذير من الانحراف ووضع الضوابط للقراءة، وبين منع الناس من تدبر كلام الله وإعمال عقولهم فيه أصلاً بحجة سد ذريعة الانحراف في فهمه. وادعى بعضهم كذباً أن القرآن الكريم عموميات لا تتنزل على حياة الناس بالتفصيل، هذا فضلاً عن تضييع كثير من المسلمين لواجب تعلم اللغة العربية – لغة الإسلام والقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم، حتى جهلها عموم المسلمين بما فيهم شعوب وقبائل العرب بلهجاتهم التي بعدت كثيرًا عن لغة القرآن الفصحى.

ويبدأ المجتهد التدبر في أي مستوى وفي أي مجال بأن يستصحب مقاصد البحث ويستحضر الإشكالات التي تحول دون تحقيق تلك المقاصد في الواقع، ثم يبدأ في قراءة كلام الله تعالى باحثًا عن المعاني التي قد تتعلق بتلك المقاصد وما يتعلق بها من أسئلة أو موضوعات بحثية، وهذه المعاني تتمثل في كلمات أو آيات أو فقرات أو سور تتعلق بالمقاصد أو المفاهيم أو الفئات أو السنن الإلهية أو القيم أو الحجج أو الأوامر ذات العلاقة، ويبدأ في بناء شبكة من تلك العناصر كالتي تظهر في المثال التالي المستل من بحث متعلق بفقه الأسرة.

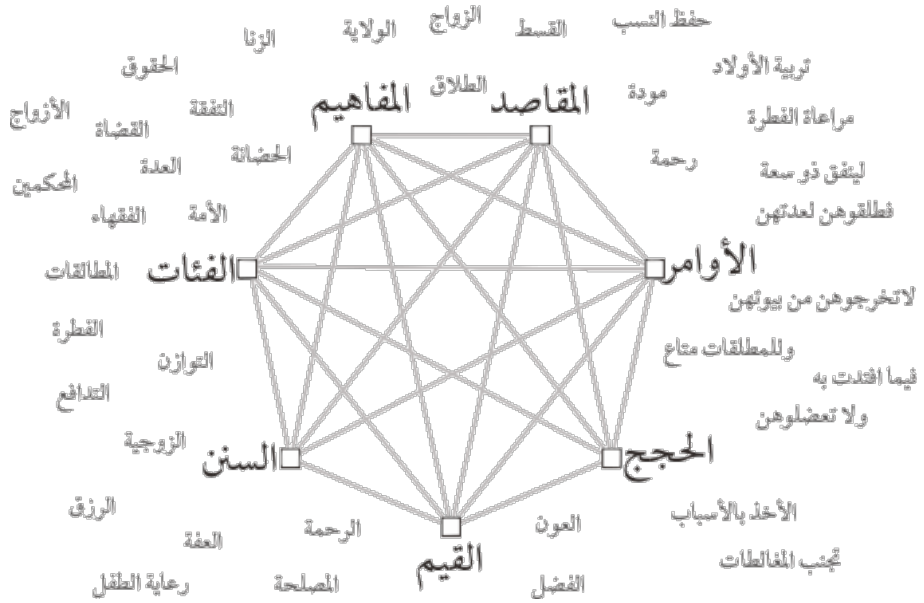

شكل ٣_ رسم لخارطة السباعية التصورية مستوحاة من بحث متعلق بفقه الأسرة

Copyright © 2022 JCMS

وقد يفيد المتدبر أن يعود إلى حفظه أو المواقع والبرامج الإلكترونية ليبحث عن كلمة مفتاحية متعلقة بالموضوع قيد البحث في عموم القرآن، أو أن يستخلص جذر تلك الكلمة ويبحث بالجذر عن ما يتعلق بها من مفاهيم، ثم يحلل العلاقات بين مواضع الورود، ولكن هذا لا يعني أن هذه المقاربة اللغوية البحتة كافية لاستكشاف المعاني المنشودة، بل لابد كذلك من دورات للقراءة على ترتيب المصحف والتفكر في السياقات والمعاني ذات العلاقة كما قصد الترتيب إيرادها على قلب المتدبر ليضيفها إلى شجرة المعاني التي يرسمها لتعينه على التصور. وقد تأتي بعد ذلك دورات تدبر وتفكر على نطاق أضيق لبعض الفقرات والسور ذات العلاقات المباشرة بالموضوع، مما يؤدي إلى فتح معاني وكلمات مفتاحية وعلاقات جديدة تضيف إلى شبكة المعاني المنشودة، وتدل على معانيها المركزية، وتولد كلياتها.

وقد يفيد المتدبر كذلك أن يعود إلى التفاسير، لا لكي يحصر المعنى فيما ذكره المفسر ولكن بغرض الاستفادة من منهجية المفسر في التدبر، فالتفسير بالأثر قد يفيد بربط بعض الآيات بما ورد حولها في السنة على صاحبها الصلاة والسلام أو بخواطر من سواه من الصحابة أو أهل العلم، والتفسير اللغوي قد يفيد بأن يشرح المفردات ووجوه الإعراب والقراءات إن وجدت ولعله يشير إلى أوجه بيانية مفيدة، والتفسير الموضوعي قد يفيد بأن يرشد المتدبر إلى أبعاد الموضوع المتعلق ببحثه وتجلياته في السور المختلفة، أو إلى المحاور العامة للسورة أو الفقرة التي يتدبر فيها، والتفسير العلمي قد يقترح أوجه للفهم تتسق حسب اجتهاد المفسر مع مكتشفات تجريبية أو أثرية جديدة، وهكذا يقارب المتدبر كل أنواع التفسير كالتفسير الفقهي والصوفي والكلامي وغيرها، وهي كلها إضافات مفيدة للتدبر ولكنها لا تحصر معاني القرآن ولا موضوعاته ولا بيانه، فهذه كلها تبقى متجددة أبدًا، وهذه من طبيعة القرآن نفسه.

ومن التفسير أن يعود المتدبر إلى ترجمة لمعاني القرآن بلغته الأم إن كانت غير عربية، ولكن المعاني هنا تتأثر بفهم المترجم للآيات والتفاسير المعتمدة لديه، وهذا المستوى من التعامل مع القرآن من خلال الترجمة يفيد في المستويات التطبيقية في الدراسات المنهجية التي ندعو إليها، كدراسات التخصصات والظواهر والمؤسسات. أما من لا يجيد العربية ويريد أن يؤصل لدراساته رأساً من كلام الله تعالى وأن يطرح أفكاراً تأصيلية في مجال اجتهاده فلابد له أن يتعلم العربية على أصولها، وهي بحمد الله تعالى لغة نظامية وشديدة الثراء ورائعة الجمال ولها أنساق مطردة ومتسقة مع فطرة الإنسان

Copyright © 2022 JCMS

في الأصوات والتعبيرات، ولها ميزة خاصة إذا تعلمها الباحث عن طريق القرآن، ألا وهي تيسير القرآن للتعلم تيسيراً خاصاً: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ – القمر ٢٢).

ثم بعد دورة أو دورات يبدأ المجتهد كذلك في البحث في كتب السنة عن نفس المعاني المتعلقة بالسؤال أو الموضوع قيد البحث. وقد تتطلب نتائج البحث في السنة دورات متداخلة مع القرآن لتصحيح التفسير أو التبويب لرواية من الروايات أو وضعها في سياقها القرآني أو النبوي السليم. علمًا أن أفضل ترتيب لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم هو في إلحاقها بالموضوعات القرآنية التي يحددها الباحث، وليس بالضرورة على أبواب الحديث أو الفقه التقليدية، وقد يفيد بأن يعود المتدبر كذلك إلى مدونات كتب السنة الإلكترونية لتسهل عليه عملية البحث عن الأحاديث، وكذلك إلى الموسوعات المعاصرة التي حاولت تحقيق درجات الحديث من حيث الصحة وربط الأطراف والمقارنة بينها، مثل المكتبة الشاملة ومعالم السنة والمسند المصنف المعلل وجامع الكتب التسعة وغيرها.

والبحث عن المعاني من خلال دورات التدبر في الوحي لا نعني به (الاستقراء) لتلك المعاني في الوحي، ذلك لأن الاستقراء يبحث فيه القارئ عن مواضع الورود لمعنى معين مسبق الوجود في ذهنه، ولكن القارئ في دورات التدبر يبدأ بقصد يتولد عنه أسئلة بحثية، ثم يبحث عن شبكة المعاني ذات العلاقة كما تعبر عنها ألفاظ الوحي، ويوصّل بينها حتى ينشأ أو يتولد منها معان كلية ورؤى جامعة ونظريات جديدة، والأساس المنطقي إذن لنتائج دورات التدبر ليس قطعية الاستقراء ولا ظنيته كما تجادل في ذلك بعض العلماء، بل الأساس المنطقي هو ظنية أو احتمالية المعنى الذي يتولد في ذهن الفقيه، إلى أن تؤكده وتزيد من احتمالات اليقين فيه علاقاته مع معان أخرى، وكلما اقترب المعنى من أن يكون معنى مركزياً في الشبكة الكبرى لمعاني الوحي كلما زادت قطعيته وكلما اتضح تعريف أبعاده.

ولا تنتهي دورات التدبر في الوحي الكريم في أي مرحلة من حياة المسلم، فضلاً عن الباحث طالب العلم في مختلف المستويات، بل المطلوب أن يقرأ المؤمنون دائمًا ما تيسر منه، ودورات التدبر تنقل المجتهد إلى الوقوف على عناصر التصور المركب ذات العلاقة، من مقاصد ومفاهيم وفئات وسنن وقيم وحجج وأوامر، ومع الوقت يبدأ في بناء تصور مركب للبحث من هذه العناصر وتفاعلاتها، كما نبين تالياً.

Copyright © 2022 JCMS

ثالثًا: بناء التصور المركب وتحليل علاقاته

إذا افترضنا أن المجتهد أراد أن يستقصي كل المعاني التي تمُتّ بصلة مباشرة أو غير مباشرة بموضوع البحث فلابد أن يصل إلى الشبكة الكبرى لمعاني الوحي كلها، وهذه شبكة غير متناهية على أي حال، ذلك لأن سنة التواصل وتشابك معاني الوحي وتكاملها وتركيبها بما لا يعلمه إلا الله يجعل كل معنى من معاني الوحي متصلاً بصلات مباشرة أو غير مباشرة بكل المعاني الأخرى، بل بكل الكون المخلوق وبكل مكوناته، وهذا مقتضى السنة الإلهية في التواصل كما ذكرنا. ولذلك، فنظرًا لعدم تناهي واستحالة استيعاب تلك الشبكة الكبرى فالمطلوب من الباحث في هذه الخطوة هو الاقتصار على الأدلة المركزية من الآيات والأحاديث التي يغلب على ظنه أنها أقرب لعلاج القضية المطروحة، ويعني ذلك الاقتصار على عدد من المعاني تحت كل عنصر من العناصر السبعة حسب اتساع البحث، بما يمكّن المتدبر من بناء شبكة التصور المركب في حجم تحليلي مناسب.

وهذا التصور المركب هو صلة الوصل بين الوحي وبين النظريات والمبادئ المستنبطة والدراسات النقدية والمقارنة التي تأتي في الخطوات التالية، لا تتفاعل مع الوحي إلا عن طريقه، وذلك حتى نتجنب الأخطاء المنهجية التقليدية بأن يكون التفاعل مع نصوص الوحي مجتزئاً أو تبريرياً أو تفكيكياً. فإذا ضغط هذا التفاعل على التصور المركب الذي صنعه المجتهد، أي أنه إذا افتقد لإجابات عن الأسئلة المطروحة، فإن العودة لدورات التدبر وتعديل التصور المركب هي الوسيلة المثلى للتعامل مع هذا الضغط والوفاء بالإجابات السليمة عن الأسئلة بناء على تعديل تصور المسألة. وهذا لا يعني أن قراءة الوحي تمليها المعاني البشرية من الحوار النقدي والمقارن، ولكن يعني أن ذلك الحوار قد يطرح أسئلة نعدّل على أساسها التصور النظري لكي يفي بحاجة البحث ويجيب عن الأسئلة المتجددة.

ثم تأتي عملية تحليل العلاقات داخل التصور المركب نفسه، أي علاقة المقاصد بالمقاصد الأخرى والمفاهيم والفئات والسنن والقيم والحجج والأوامر، ثم علاقة المفاهيم بكل هذه العناصر، والفئات، والسنن، وهلم جراً، وهي عملية مركبة كثيرة التفاصيل نعرض خطوطها العامة فقط فيما يلي ثم نختصرها في جدول من الإشارات إلى تفاصيلها.

هناك أدلة متكاثرة من الوحي على أن المقاصد تؤدي دور الوسائل إلى مقاصد أعلى، إلى أن نصل إلى المقصود الأعلى بالخلق هو عبادة الله سبحانه، ولكن العبادة تؤدي إلى التقوى، والتقوى

Copyright © 2022 JCMS

يؤدي إليها عدد من الوسائل، وهي أيضًا تؤدي إلى الشكر، والشكر يؤدي إلى زيادة النعم، وزيادة النعم تؤدي إلى الشكر، والشكر يؤدي إلى العبادة، ولكن العبادة أيضًا تؤدي إلى الشكر وزيادة الإيمان، وهكذا تتواصل المقاصد لتكون شبكة معنوية مركبة متفاعلة، ويتولد من علاقات المقاصد ببعضها حقول مقاصدية تتعلق بمعانٍ مركزية.

والمقصد مفهوم يخضع تصوره لضوابط تصور المقصد وطرق الكشف عنه، وتصور المفهوم نفسه لابد أن يتصل منهجياً بمقصده، فمفهوم الإنسان يتصل بمقصد الإعمار، ومفهوم القلب يتصل بمقصد التزكية، وهكذا، وتصنيف الفئة لابد أن يتسق كذلك مع المقاصد المنوطة بها، وإلا فسد، فمن مقاصد فئة العلماء حسب التعريف الشامل لهم مثلاً أن يرثوا العلم ويقوموا بالحق ويعلموه، ومن مقاصد فئة الحكام أن يحكموا بالعدل والقسط، وضمان الأمن والنصح للناس، وهكذا.

والسنن الإلهية لها مقاصد مرتبطة بتمثلاتها في الواقع وتطبيقنا لها فيه، فسنة التوازن الطبيعي كمثال مرتبطة بمقصد إصلاح الأرض، وسنة التدافع مرتبطة بمقصد إصلاح الأرض ومقصد إقامة العدل، وهكذا. والقيم من منفعة وخُلق وجمال هي في حدّ ذاتها مفاهيم ومقاصد، وفالمنفعة هي في تحقيق المصلحة وتجنب المفسدة، وعلاقتهما بعلم المقاصد لا تخفى، والخُلق معنى تقصد الأحكام الشرعية إلى تحقيقه، وتقصد سنة الأنبياء وأسوة الصالحين إلى التأسي والتمثل به، والجمال معنى مقصود من الله تعالى في خلقه، ومقصود من الناس تحقيقه في دنياهم. وعلاقة المقاصد بالحجج منها أن الحجاج العقلي يقصد أساسًا إلى الوصول إلى الحق، وهذا المقصود من الحجج المنطقية ينبغي أن يحكم على تفعليها في طريقة التفكير في كل المجالات، وعلاقة الأوامر والنواهي بمقاصدها ظاهرة في كل أوامر الوحي ونواهيه، فما من أمر ولا نهي إلا ومعه مقصد أو حكمة نص الوحي عليها أو اجتهد المجتهدون في استنباطها، كالصلاة والزكاة والصوم والحج والإنفاق وأحكام الأحوال الشخصية.

أما المفاهيم التي نتعلمها من الوحي، فبينها علاقات شبكية مركبة، وتكوّن حقولًا مفاهيمية ينبغي للمتدبر أن يستصحبها في تدبره وبحثه، وعلاقة المفهوم بالفئة تحكم على التصور الصحيح لهما، كالعلم والعلماء، والفقه والفقهاء، والإسلام والمسلمين، والنفاق والمنافقين، والحكم والحكام، والطهر والمتطهرين، وهكذا. وكذلك علاقة السنة الإلهية بالمفهوم الذي بُنيت عليه مصطلحاته، كسنة النصر ومفهوم النصر، وسنة التغيير ومفهوم التغيير، وسنة التداول ومفهوم التداول، وسنن الفطرة

Copyright © 2022 JCMS

ومفهوم الفطرة، وهكذا. وعلاقة المفاهيم بالقيم تتعلق بالتحليل المفاهيمي للقيمة النفعية كالطعام والشراب والمال، أو الخُلقية كالعفة والرحمة والصبر، أو الجمالية كالزينة والحسن والتوازن، وذلك قبل أن نفعلها في مراعاة الاختيارات والأولويات وتكوين ثقافة الفرد والمؤسسة والمجتمع والأمة.

والحجج كذلك لها تعلق بالمفاهيم التي نصطلح على وصفها بها ولا يمكن أن تقوم تلك الحجج كعلامات على الحق إلا بعد هذه المراجعة المفاهيمية لها، وكلمة (الحجة) مفهوم قرآني كبير يتطلب من الباحث المقاصدي الأصولي تحليلًا خاصًا. ثم إن (الأمر) مفهوم أكبر، وورد في كتاب الله تعالى في مئات المواضع وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بمعان تبين أبعاد هذا المفهوم مما ينبغي تدبره وتحليله، وهذه المفاهيم التأسيسية وأمثالها لابد أن تعود جزءًا من الخطاب الشرعي بشكل خاص، والثقافة الإسلامية اللغوية في كل اللغات التي يتكلم بها المسلمون بشكل عام.

أما العلاقات البينية بين الفئات فبعضها على نقيض كالمؤمنين والمنافقين، والمصلحين والمفسدين، والسفهاء وأولي الألباب، وبعضها فئات تمثل أجزاءً من فئات أكبر هي أمة ذات نطاق أوسع يخاطبها الوحي على أنها وحدة وعي وإدراك وذاكرة جماعية بل ومسؤولية جماعية، وإن كان كل فرد فيها حسب نيته التي يُبعث عليها، كفئة أهل الكتاب وفئة بني إسرائيل منهم، وفئة الذين شهدوا منهم بالحق في مقابل فئة السماعين للكذب الأكالين للسحت، وهذه الدوائر المتقاطعة مهمة في التحليل الواعي للفئات وأدوارها وسبل التعامل معها.

وهناك سنن تنطبق على فئات بعينها، كفئة المجاهدين وسنن النصر والهزيمة، وفئة الحكام وسنن العدل والظلم، ودراسة السنن عموماً لها أهمية خاصة للفئات التي تتصدى للشأن العام، وهناك كذلك قيم تتعلق بفئات معينة أكثر من غيرها، كقيم الرحمة والحلم والعفو والصبر والصفح لفئة القادة والأئمة، وقيم المودة والرحمة وصلة الرحم والنسب والصهر لفئة المتزوجين، وقيم سلبية كالظلم والكبر والبخس وإهلاك الحرث والنسل لفئة المفسدين، وهلم جرًا.

وأما علاقة الحجج بالفئات فإن هناك مستويات من الحجج تتناسب مع مستويات العقول عند فئات الناس، فهناك من لا يكادون يفقهون حديثاً، ويحتاجون إلى خطاب خاص، وهناك أولو الألباب الذين أوتوا الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا، وعلاقة الفئات بالأوامر والنواهي تحتاج إلى تركيب، فهناك أوامر خاصة بالأغنياء وأخرى للفقراء، والحكام والمحكومين، والرجال والنساء، وهكذا، كل حسب قدراتهم وأموالهم وقوتهم وسلطاتهم ومسؤولياتهم وفوق ذلك كله حكمة

Copyright © 2022 JCMS

إلهية في تقدير أدوارهم حسب السنن الإلهية الحاكمة، وهذا أيضًا حسب طيف من الألوان داخل كل فئة وكل فرد فيها كما اقتضت الحكمة الإلهية بذلك.

أما السنن الإلهية، فلها سنن جامعة لها كالعموم والاطراد والتوازن والرحمة، ولها حقول مثل السنن الكونية، وسنن المجتمعات والأمم، وسنن الفطرة، وسنن الرزق، وسنن التغيير، وسنن النصر، وسنن الهزيمة، إلى آخره، والسنن الإلهية لها علاقة بالقيم نظراً لتدافع الخير والشر، والإيثار والأثرة، والكرم والطمع، والعفو والانتقام، واللين والفظاظة، وهلم جرًا، والتأسّي بالقيم الإيجابية ونبذ السلبية هو وفاء لجوانب الخير في سنن الفطرة الإنسانية وفتح لما يترتب على هذه الجوانب سننيًا من خير.

وعلاقة السنن الإلهية بالحجج أن التفكير العقلي السليم هو التفكير الذي يراعي السنن الإلهية ويهتدي بنورها، كسنة الزوجية التي تحدو بالعقل أن يعلم أن لكل قضية حدّين، وأن يحاجج بما يوازن بين المتناقضات كما تتوازن المتناقضات في سنن الكون المادي والمعنوي، وسنة التنوع تحدو بالعقل أن يستوعب اختلاف الألوان والأشكال والآراء والثقافات والمذاهب والمشارب، على أن يتفاعل معهم جميعًا في حدود المنهج، وهكذا.

والأوامر والنواهي لابد أن تُفهم وتُنزّل على الواقع في ضوء السنن الإلهية، فمن سنة النبي صلى الله عليه وسلم مثلًا التدرج في تطبيق الأوامر والنواهي، كما نزل الوحي المتلو بذلك متدرجًا في التحريم أو الإيجاب على مدار عصر الرسالة، ومراعيًا سنن الفطرة في تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه.

والسنن الإلهية نفسها لابد أن تُفهم أيضًا في حدود الأوامر والنواهي الثابتة، ولا يصح أن يُدعى تفعيل سنة إلهية معينة بشكل يخالف أوامر الله تعالى، فسنّة التوازن مثلًا تقتضي القسط بين الناس في الحقوق والواجبات المنصوص عليها، ولذلك فإن الأوامر والنواهي الإلهية قضت أن هناك مساحات لا يتساوى فيها الناس بل يكلّف كلٌ حسب قدراته وبما فضل الله الناس بعضهم على بعض من درجات مختلفة ليبلوهم بها أيهم أحسن عملًا، فواجبات الغني غير واجبات الفقير، والمرأة غير الرجل، والقوي غير الضعيف، والبالغ غير الطفل، والحاكم غير المحكوم، والعالم غير العامي، وهكذا. وسنة التوازن هنا هي أن نفهم الحكم العليا في الأوامر والنواهي المحكمة لتحقيق العدل والتوازن والرحمة.

Copyright © 2022 JCMS

أما القيم فتنقسم كذلك إلى حقول ودوائر متشابكة، دوائرها الكبرى بدت لنا في قيم المنفعة والخُلق والجمال، كل منها يمثل حقلاً خاصاً نتصور مفاهيمه من منطلق الوحي، وهناك قيم تتعلق بالحجاج العقلي وأسلوب التفكير وهي معان مقصودة، مثل حب الحق والإيمان والإنصاف والحِلم والتوازن والخوف من الله والرجاء وطلب العلم والشغف في ذلك والتساؤل والحكمة والتواضع، وما إلى ذلك، وهذه القيم لا يدخلها أهل الفلسفة في آليات المنطق ولكن الوحي الكريم يعلمنا إياها جزءًا لا ينفصل عن الحِجاج العقلي السليم، وإلا وقع الإنسان في السفاهة والتيه والضلال، حسب المفاهيم السليمة.

أما علاقة القيم بالأوامر والنواهي الإلهية، فالأمر الإلهي كلّه منفعة وكلّه خلُق وكلّه جمال، وهو معنى مبثوث في نصوص الوحي، إذ يوصف القرآن بأنه مفصّل على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون، ويوصف السراح أو الطلاق إذا روعيت فيه حدود الله بأنه جميل، وهي قيمة تصف حسن الخلق في التعامل وأداء حقوق الطرفين خاصة حقوق المرأة والطفل، ويصف أداء المال بالإحسان، ويربط بين أمر أداء الشهادة وقيمتي الأمانة والصدق، وبين الأمر بالعفو وقيمتي التقوى والرحمة، والأمر بالزواج وقيمتي العفّة والمودة، والنهي عن الخمر والميسر مع قيمة نفي العداوة والبغضاء بين الناس، والنهي عن الربا بقيمة العدل وعدم الظلم، وعدم الإفساد في الأرض، وهكذا في كل الأوامر والنواهي الإلهية هناك قيم تتغياها وتستصحبها.

أمّا الحجج العقلية فهي منطق يسري على كل الأصول والعناصر الأخرى في تحليلها وتقسيمها وتفعيلها، وبعض الحجج مصدرها أوامر منهجية كتجنب التجزيئ والتحريف والمغالطات الكاذبة، إلى آخره، وبعضها يُفهم من سياق الحديث عن المقاصد والقيم والسنن الإلهية.

والأوامر – أخيراً – تتعلق بالمقاصد في غاياتها، وبالمفاهيم في تعريفاتها، وبالفئات المخاطبين بها، وبالسنن لفهمها وتنزيلها، وبالقيم في حقيقتها، وبالحجج في فهمها. وهكذا تشكل المقاصد والمفاهيم والفئات والسنن والقيم والحجج والأوامر وحدة واحدة متشابكة ومتعددة الأبعاد.

رابعاً: الدراسات النقدية للواقع والبحوث السابقة

في هذه الخطوة المنهجية ينقد المجتهد الواقع المعيش من خلال التصور المركب، وينقد كذلك الآراء والنظريات التي تتعلق بالقضية تحت الدراسة سواء أكانت آراء من التراث الإسلامي أم أطروحات

Copyright © 2022 JCMS

من الفكر الإسلامي المعاصر، وذلك من باب النقد الذاتي الإسلامي، كما ينقد ذلك الآراء والنظريات التي تنطلق من منطلقات غير إسلامية – كلّ حسب قصد البحث وموضوعه وإشكالاته وأسئلته.

أمّا تصوير الواقع المعيش ثم نقده من خلال التصور المقاصدي، فقد مر الحديث عنه في ثنايا الحديث عن القصد البحثي، وكيف أن التوصيف المبدئي للبحث لابد أن ينطلق من الرؤية الإسلامية لا من رؤى دخيلة تورط الباحث منذ بداية عملية الاجتهاد في أنساق ومنظومات فكرية وواقعية ما أنزل الله بها من سلطان. وفي هذه الخطوة بعد أن يبدأ التصور المركب في الاتضاح، فإن على المجتهد أن يقارن بين عناصر التصور وعناصر أخرى لتصورات موازية لنفس موضوع البحث.

أمّا التصورات الموازية للواقع من منطلق إسلامي فهي تتمثل في مقاصد ومفاهيم وفئات وسنن وقيم وحجج وأوامر – أو بعض هذه الأبعاد – كما نبعت من خلفية إسلامية، وجدير بالذكر أن المراجعات للواقع والنقد الإسلامي الداخلي عملية مهمة تتمثل فيها حيوية هذا الدين في كل مكان (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ – الأنبياء ١٠٧)، وكل زمان (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ – الأحزاب ٤٠)، إلا أن لها ضوابط أخلاقية ومنهجية ينبغي أن تراعى.

أول تلك الضوابط التي ننقد بها المقاربات الإسلامية قديماً وحديثاً أن تجديد الدين لابد أن يظل في حدود ثوابت الدين ومحكمات الكتاب، ولكنه لا يقبل دعاوى احتكار المعرفة أو ادعاء القطعيات فيما ليس بقطعي من المتغيرات التي من طبيعتها الحاجة المستمرة إلى التجديد وإعادة الصياغة. فهناك فرق بين مراعاة الطبيعة التراكمية للمعرفة الإسلامية بأن يبني اللاحق على السابق، وبين التقليد الأعمى الذي يتعصب فيه المقلدون لتحيزاتهم المذهبية كلامياً وفقهياً وحديثياً ولغوياً، ومدار هذا الفرق في قدرة المجتهد اللاحق على النقد والإضافة على السابقين، مع مراعاة الفرق بين النقد المبني على أسس أصيلة من العلم، وبين البحث عن المثالب من باب الهدم للغير، فإذا راعى المجتهد هذه الضوابط فالحوار النقدي مع الأطروحات الإسلامية – التراثية منها والمعاصرة – هو خدمة جليلة للتراث نفسه ولهذا الدين وللأمة والإنسانية بشكل عام.

والنقد للفكر والفقه الإسلامي التراثي ليس نقداً ولا نقضاً لذمة الأئمة والمفكرين والفاعلين الصادقين حاشا لله، وإنما هو نقد لعدم تناسب أفهامهم وأفكارهم ونظمهم ومؤسساتهم ودولهم

Copyright © 2022 JCMS

وطبهم ومعمارهم وتجاراتهم وجغرافيتهم وأسواقهم وعلومهم التجريبية مع مستجدات عصرنا، وبالتالي فلابد من تقييم مدى انطباق آرائهم مع الأصول المنهجية للقرآن والسنة كما تتنزل على الواقع المعاصر. ونكرر القول أن هذه المراجعة ليست لثوابت الأحكام بين الوجوب والتحريم، ولا الكليات ولا النظم الإسلامية الإيمانية ولا الشعائرية ولا المقاصدية، بل لتطبيقاتها وتمثلاتها في واقع الناس اليوم.

وأمّا الموضوعات التفصيلية للحوار مع الفكر والفقه الإسلامي القديم والمعاصر، فنقطة البداية فيها تدور حول عناصر التصور المركب الذي يصل إليه المجتهد من مقاصد ومفاهيم وفئات وسنن وقيم وحجج وأوامر وما تنتجه من نظريات ومبادئ، بالمقارنة مع العناصر أو النظريات المقابلة الموروثة أو المعاصرة، وذلك بغرض استكمال المعرفة بإسهامات السابقين في مجال البحث، أو الاقتناع بضرورة التجديد وإعادة الصياغة.

ثم إن إصرارنا على مصدرية الوحي المعرفية والانطلاق من الوحي والانتهاء إليه، لا نقصد به أن ينعزل الفقه الإسلامي بالمعنى الواسع أو يتقوقع على الأفكار التي تتصل مباشرة بالوحي الكريم دون أن تتفاعل هذه الأفكار مع الطفرة الهائلة التي شهدتها القرون القليلة الماضية في كل مجالات الفكر غير الإسلامي – أي الذي لا ينطلق من رؤية مركزية أو مرجعية إسلامية، والذي تمثل في منظومات واقعية فكرية وعملية نعيشها في ظل الحضارة المعاصرة التي غلبت على ملامحها شرقاً وغرباً الحضارة الغربية وخاصة منظومات الهيمنة الاقتصادية والثقافية والسياسية.

إلا أن هناك فرقاً بين الحوار الذي يقصد منه التعاون على الخير والحق، والاستفادة من الإبداع الإنساني في كل مجال، وبين التنازل عن المنهجية الإسلامية الأصيلة كلياً أو جزئياً باسم الحوار أو السلام أو الانفتاح أو التقدم أو (الحكمة ضالة المؤمن). فالدين والمنطلق والرؤية والمنظور والمنهجية الإسلامية في أصولها تختلف في مسائل تأسيسية عن غيرها من الأدلوجات والفلسفات، والأدلوجات والفلسفات العلمانية ليست (أرضية مشتركة) كما ينخدع بذلك البعض، بل أسس الإسلام هي الأرضية المشتركة نتفق ونختلف مع الناس على قدر اقترابهم أو بعدهم عنها. (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ – آل عمران ٦٤).

وأمّا الموضوعات التفصيلية للحوار والتعاون مع الفكر الإنساني غير الإسلامي القديم والمعاصر، فنقطة البداية فيها كذلك تدور حول عناصر التصور المركب الذي يصل إليه المجتهد من

Copyright © 2022 JCMS

مقاصد ومفاهيم وفئات وسنن وقيم وحجج وأوامر وما تنتجه من نظريات ومبادئ، وذلك بالمقارنة بين السباعية التصورية والنظريات المقابلة القديمة أو المعاصرة كما تظهر في الواقع الفكري النظري أو العملي المعيش، ويمكن أن نسمي العناصر المقابلة بنفس الأسماء، ولكننا فضلنا هنا أن نطلق عليها اصطلاحاً أسماء مقابلة للتمييز بينها وبين المصطلح الإسلامي، كما يلي ويظهر في الشكل التالي: الأهداف المرجوة، والمصطلحات السائدة، والمجموعات المصنفة، والقوانين العامة، والأخلاقيات المعيارية، والبراهين المنطقية، والقواعد المتبعة.

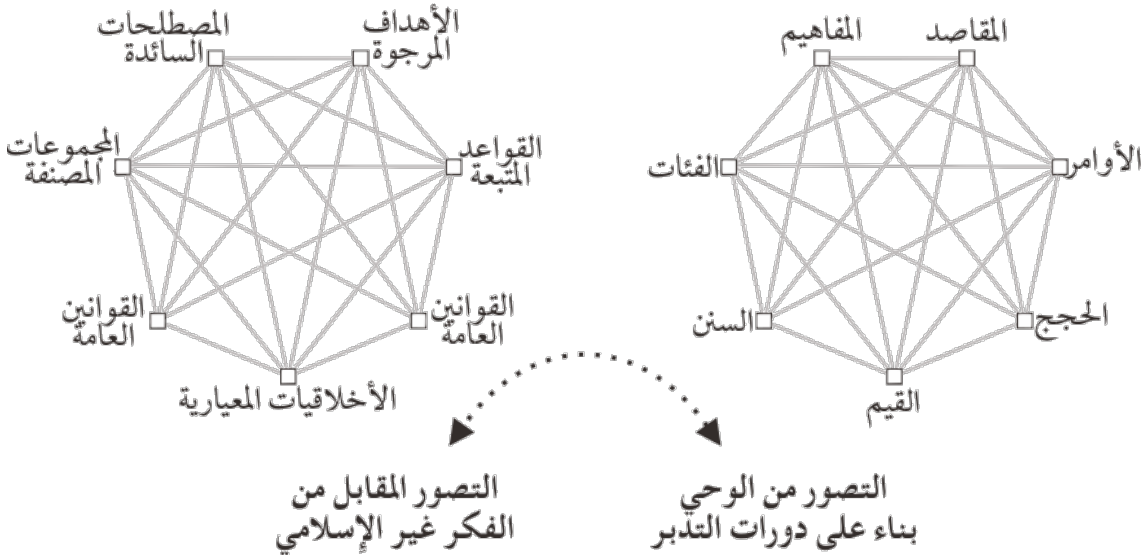

شكل ٤_ دراسة مقارنة بين التصور المركب وغيره من التصورات الإسلامية

وتتراوح محصلة الحوار هنا بين نتيجتين وما بينهما من طيف: إمّا نقض وردّ التصورات غير الإسلامية نظراً لتناقضها مع التصور الإسلامي في عمق لا يسمح بحل التعارض ولا وجود مساحة للتوافق، وإمّا أن تكون المحصلة هي الاستفادة من الدراسات غير الإسلامية التي لا تتناقض في نتائجها مع التصور الإسلامي في فهمنا وتقديرنا، وإن تناقضت في أصولها المعرفية والمنهجية، مع إعادة صياغتها لتنحية الصبغة غير الإسلامية من عناصرها أو لغتها، خاصة إذا كنا سنضيفها لمفردات الخطاب الإسلامي نفسه حتى يكون أكثر استعداداً للحوار والتلاقح مع أفكار وأطروحات الآخرين والتعاون في القضايا المشتركة، وبذلك نأمل أن تسهم المنهجية الإسلامية في تصحيح بعض الأطروحات غير الإسلامية التي تؤثر سلبًا على الحياة الإنسانية، وذلك حتى تتجاوز الاقتصار على دعوات التعايش والسلام إلى إسهام المنهجية الإسلامية في الحضارة الإنسانية المعاصرة.

Copyright © 2022 JCMS

وهناك مستوى التطبيق للأفكار والرؤى المقاصدية، والذي يتقاطع في مساحات كبيرة من العمل المدني والنضال الحقوقي في كل أنحاء العالم، وله أهداف بينها تقاطعات إنسانية كبيرة، مثل قضايا العدالة الحقيقية، وحقوق الإنسان الأساسية، ونبذ الاحتكار والفساد والفقر والمرض والجهل والطغيان وغير ذلك، وفي هذا مجال طبيعي وواسع للحوار والتعاون على الخير في المشتركات بين الجميع ولابد أن يبقى مفتوحًا للجميع ويسهم فيه المسلمون ويضيفوا إلى الإنسانية إضافات طال غيابها عن حضارة الإنسان.

خامسًا: توليد النظريات والمبادئ الحاكمة

من خضم المعاني والعلاقات والتحليلات نرجو أن تتولد في عقل وقلب المجتهد نظريات ومبادئ جامعة لروافد الأفكار الجزئية في مساقات من الكليات، وتكون تلك النظريات والمبادئ أيضاً حاكمة على النتائج الفكرية والعملية للاجتهاد، وموجهة للفعل قصير وبعيد المدى على المستوى الفردي والجمعي. وتولد الكليات من تركيب الجزئيات بغرض تحقيق المقاصد سنة إلهية وفضل من الله تعالى على عقل الإنسان. ومعنى التولد منهجيًا ليس جديداً، ومظانه في تراثنا كتب الأئمة من الفقهاء في كل نوع من الفقه بمعناه الواسع على مدار التاريخ الإسلامي كله، فقد أصبحوا أئمة بفضل قدرتهم على صياغة الجزئيات في معان كلية يعبرون عنها بنظرياتهم الخاصة في أصول التفسير وأصول الحديث وأصول الفقه وأصول الكلام وأصول اللغة، وغيرها من أنواع الأصول، والتي هي نظرات كلية بامتياز.

وأمّا في الواقع الإسلامي الفكري المعاصر، فقد رصدنا اهتماماً متنامياً وعدداً من المحاولات لتوليد الكليات من معاني الوحي الجزئية، أهمها كلية موضوعات القرآن عند المعاصرين الذين تصدوا للتجديد في تفسير القرآن، كالأئمة محمد عبده، ورشيد رضا، ومحمد شلتوت، ومحمد أبي زهرة، ومحمد الطاهر ابن عاشور، وسيد قطب، ومحمد باقر الصدر، ومحمد الغزالي، ويوسف القرضاوي، ووهبة الزحيلي، وعبد الحميد كشك، وسعيد حوى، وغيرهم ممن تصدى للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم في عصرنا، وكذلك النظريات التي تُكامل بين الموضوعات القرآنية وتركب معانيها، كعَقْد المعاني القرآنية عند الشيخ محمد عبد الله دراز، والوحدة البنائية للقرآن الكريم عند الشيخ طه جابر العلواني، ونظام القرآن عند رواد مدرسة التفسير الهندية المعاصرة كالإمام الفراهي والدكتور أسد سبحاني وتلاميذهم، والتفسير التوحيدي عند الدكتور حسن الترابي، والمفاهيم القرآنية المحورية عند

Copyright © 2022 JCMS

الدكتور طه عبد الرحمن، وخرائط المفاهيم عند الدكتورة هبة رؤوف والدكتور سيف الدين عبد الفتاح والدكتور جاسم سلطان وغيرهم من واضعي المنظومات المقاصدية والقيمية القرآنية كأصول للبحث المعاصر في علوم السياسة والاجتماع والعمران والتخطيط والفلسفة، وغير هؤلاء جميعاً شرقاً وغرباً من المهتمين بالتركيب والتكامل بين معاني الوحي ووضعها في أصول نظريات جديدة، وكل هؤلاء ننصح الباحث المقاصدي أن يستفيد من أطروحاتهم التكاملية أثناء خطوة توليد النظريات والمبادئ.

ونقصد بالنظرية في هذه المنهجية: مفهوم جامع نتصوره من خلال شبكة من الأدلة من الكتاب والسنة، ويتعلق بمجموعة من المقاصد والمفاهيم والفئات والسنن والقيم والحجج والأوامر، ويندرج تحته نظام من نظم الإسلام متشعب الفروع عبر الموضوعات والسياقات، ويتفرع عنه نظريات فرعية ومبادئ تحكم تعامل ذلك النظام في سياق واقعي.

وأمّا المبادئ التي تتفرع عن النظريات فهي على مستوى أقل تجريدًا من النظرية وأكثر التصاقاً بالواقع، وتعبر لغتها بشكل أكثر مباشرة عن أفراده ومؤسساته، وهي قاعدة مستنبطة في ضوء النظرية من التصور المركب لواقع السؤال المطروح أو الظاهرة، حتى يحقق المبدأ المقاصد المنشودة في الواقع، ويُكامل بين المعاني والأدلة الجزئية التي شكلت التصور المركب، ويحلّ التعارض بين تلك المعاني والأدلة وبعضها ببعض، وبينها وبين المعاني المقابلة لها في الواقع المعيش والفكر الإنساني.

وقد يعاد في هذه الخطوة طرح الأسئلة الأصلية بشكل مختلف أو تضاف أسئلة أخرى فيعود المجتهد إلى دورات التدبر مجددًا، وإلا فالمرجو أن تبدو ملامح نظريات أو مبادئ تقدم إجابات عن الأسئلة المطروحة في البحث وتتحقق من خلالها مقاصده. وهذا التولد للنظريات الكلية من حصيلة التدبر والتحليل والمناقشات ليست عملية خطية بسيطة، وإنما تتكون الكليات من الجزئيات إذا أدام المجتهد الاجتهاد وأمعن النظر وأرجع البصر حتى تبدأ الصورة الكلية في الظهور – بفضل الله تعالى – لكي تضم أطراف الصورة المبعثرة في تصور كلي محيط معناه أكبر من المجموع البسيط للأجزاء المكوّنة له.

وعملية تولد الكليات من الجزئيات يدرسونها في علوم التصورات المعاصرة ويزعمون أنها تحدث بسبب التركيب الشبكي للمخ، وهم يخلطون هنا بين المخ كآلة تتحكم في الجوارح وتتفاعل مع التفكير الإنساني، وبين عملية التعقل نفسها وهي في التصور الإسلامي خارج المخ وخارج الجوارح، ذلك لأن العقل والفقه والفهم والتدبر والتفكر والتذكر والاعتبار والتبصر محلها القلوب التي في

Copyright © 2022 JCMS

الصدور، مع العلم أن القلب أوسع من العضلة المعروفة على مستوى المادة الجسدية التي نلمسها، ولذلك فوصول المجتهد إلى فقه الكليات والنظريات والمبادئ يتعلق بسلامة القلب من المرض والعمى، واجتهاد صاحبه للوصول إلى المعارف العالية والعلوم المحيطة، كما ذُكر من قبل في شروط الاجتهاد السليم.

وقد رصدنا أيضاً في الفكر المعاصر محاولات متنامية لإعادة صياغة التبويب التشريعي الإسلامي عن طريق الكليات النظرية في التشريع، كنظريات الملكية والعقود والمؤيدات والعرف والجريمة والمسؤولية وغيرها، ولو أنها اقتصرت غالباً على النظريات القانونية الحقوقية خاصة حسب التقسيم القانوني الأوروبي. ولكن البحث عن النظريات الحاكمة على أيّ حال هو أفضل منهجية للتجديد في الفقه الإسلامي من مدخل التبويب، وهو تجديد مطلوب نظراً لإشكالية التراوح بين الجمود على الأبواب القديمة والتبرير لأبواب العلوم التي تسمى (عصرية).

أما الجمود على الأبواب والتقسيمات القديمة للموضوعات الفقهية، كأبواب المعاملات من البيوع والإجارات والمساقاة والشركة والشفعة والعتق والكفالة والأطعمة والجهاد والسياسة الشرعية بأبوابها المختلفة والقضاء، إلى آخره، فإنها تقسيمات تنطلق من تصورات لا تتوافق مع التصور الواقعي لهذه الموضوعات في عصرنا، كتقسيم الدور مثلاً إلى دار إسلام ودار حرب، أو افتراض نظام معين للقضاء أو الحكومة أو العملات أو الأسواق، أو أنواع من الأسئلة الخاصة بتفاصيل بيئية قد تغيرت معطياتها في الواقع المعاصر، أو عدم مراعاة أعراف اجتماعية تغيرت كثيراً عن الماضي في البيوع والإجارات والشركات والزراعة والطرق وما إليها، فضلاً عن عدم استيعابها للمستجدات المعاصرة والعلوم المعاصرة وهي كثيرة، وكأنّ الفقه الإسلامي ليس له (أبواب) في علوم الإعلام والإدارة والأحياء والطب والآثار والفنون الجميلة والاقتصاد والسياسة والقانون، إلى آخر العلوم، وهو تصور غير سليم.

وأما الطرف الآخر من معادلة التجديد فتصوروا التجديد فقط في التبويب عن طريق تلك التخصصات (العصرية) أو (الأكاديمية) أو (المهنية)، وهذا أيضاً لا يتفق مع المنهجية السليمة لأنه يحبس الفقه في التصورات الفلسفية التي بنيت عليه التعريفات المؤسسة لتلك التخصصات والعلوم المعاصرة، فضلاً عن أنها لا تركّبها أو تُكامل بينها كما هو التصور الإسلامي السليم للعلم. والتبويب الحالي للفقه والفكر الإسلامي المعاصر خليط غير متجانس من الطريقتين، أي أسماء الأبواب القديمة

Copyright © 2022 JCMS

وأسماء التخصصات الجامعية الجديدة حسب تقسيم الأكاديميات الغربية، مما يعزز منهجيات جزئية وتبريرية.

شبكة المقاصد البحثية

كيف يمكن أن تؤثر المنهجية المطروحة في الواقع المعيش؟ إجابتنا عن هذا السؤال تتمثل في ثلاثة مجالات نرجو أن تؤثر فيها المنهجية المقاصدية لكي تحدث أثراً واقعياً ملموساً، ألا وهي: البحث العلمي، والتعليم والتدريب، والعمل المؤسسي. ولكن الأهداف البحثية والتعليمية والمؤسسية لا يمكن أن تتحقق إلا أن نجدد الدراسات الإسلامية بالمعنى الواسع بحثاً وتعليماً وتفعيلاً، وهي المهمة التي يحول دون تحقيق مقاصدها بشكل واف المقاربة الحالية للدراسات الإسلامية، إذ أنها تنقسم حاليًا إلى قسمين بين التقليد والعلمنة، ولذلك فقد اقترحنا تقسيماً للدراسات الإسلامية يتغيا الوفاء بتلك المتطلبات، وتتكامل فيه أقسام جديدة أشمل وأكثر تحقيقاً للمقاصد المنشودة من التقسيمات المعاصرة، ألا وهي: دراسات الأصول، ودراسات التخصصات، ودراسات الظواهر، ودراسات المؤسسات، وتحت كل من هذه الأقسام تندرج التخصصات والمشروعات البحثية والتعليمية والتفعيلية الفرعية، تتداخل دوائرها وتتكامل في شبكة من المعاني والمجتهدين والمؤسسات، والتي نرجو منها أن تسهم مجتمعة في تحقيق المقاصد الكبرى للوحي الإلهي في الواقع الإسلامي والإنساني علمًا وعملًا.

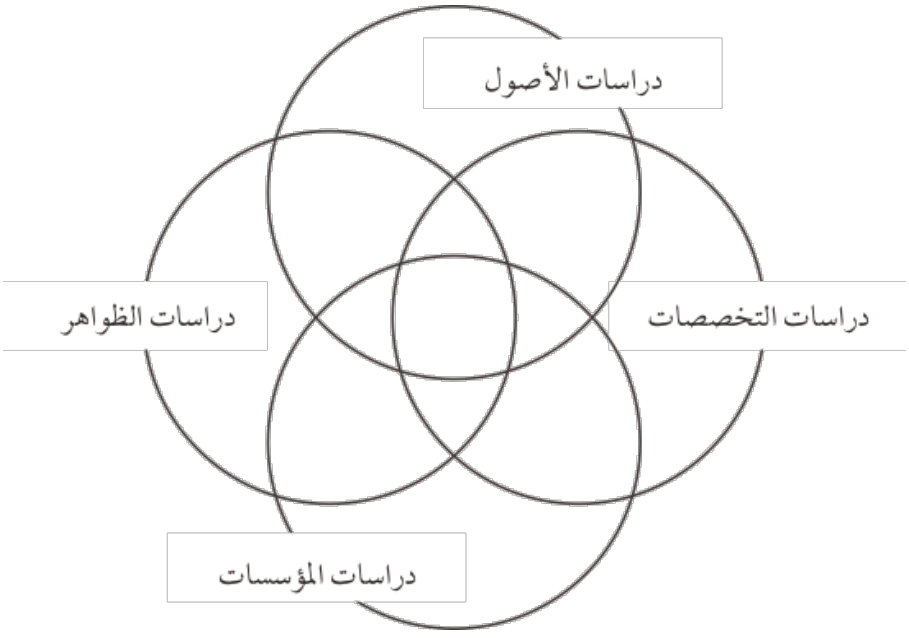

شكل٥_ تقسيم مقترح للدراسات الإسلامية المعاصرة

Copyright © 2022 JCMS

References

Abduh, Mohammad. (1993). *Al-A'mal Al-Kamilah lil-Sheikh Muhammad 'Abduh. ed.* Mohammad Emara, Cairo: Dar al-Shuruq.

Abdul-Fattah, Seif. (2020). *Musa'alat Al-Turath: Al-Mafhum, Al-Minhajiyah.* Al-Ma'alat, Egyptian Institute for Studies, Political Studies.

Abu Ghudda, Abdul-Fattah. (1984). *Commentary: Zafar Al-Tahanawi, Qawa'id fi 'Ulum Al-Hadith.* Halab: Maktab Al-Matbu'at Al-Islamiyah.

Abu Zaid, Nasr Hamed. (1990). *Mafhoom Al-Nass: Dirasah fi Ulum Al-Quran,* Cairo: Al-Hayah Al-Misriyah lil-Kitab.

Ahmad, A. A., Yaacob, S. E., & Zain, M. N. (2014). The Use of Wa'dan in Islamic Contract FX Forward: Weighting between Maslahah and Mafsadah. *Asian Social Science.*

Al-Amidi, Ali. (1404 AH). *Al-Ihkam fi Usul Al-Ahkam*. Beirut: Dar Al-Kitab Al-Arabi.

Al-Awni, Al-Sharif Hatem. (1997). *Al-Mursal Al-Khafi wa 'alaqatuhu bit-tadlis - Dirasah Nazariyah wa Tatbiqiyah 'la Marwiyat Al-Hasan Al-Basri*. Al-Khubar: Dar Al-Hijrah.

Al-Azami, Mohammad. (1985). *On Schacht's Origins of Mohammadan Jurisprudence*. Riyadh: King Saud University and John Wiley.

Al-Bouti, M. Said Ramadan. (2001). *Dawabit Al-Maslahah Fil Shariah Al-Islamiyah*, 6th ed. Damascus: Al-Risala Foundation.

Al-Farabi. (1949). *Ihsa al-'ulum*. ed. U. Amin, Cairo: Dar al-Fikr al-Arabi.

Al-Faruqi, Ismail. (1952). On Justifying the Good. Ph.D. Thesis in Philosophy, Indiana University.

Al-Ghazali, Abu Hamid. (1992). *Al-Mustasfa fi 'Ilm Al-Usul*. 1st ed. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiya.

Al-Ghazaly, Mohammad. (2002). *Nazarat Fi Al-Quran*. Cairo: Nahdat Misr.

Al-Juwaini, Abdul-Malik. (1997). *Al-Burhan fi 'Ulum Al-Qur'an*. 4th ed. Al-Mansura. Egypt: Dar Al-Wafaa.

Al-Raysuni, Ahmad. (1992). *Nazariat Al-Maqasid 'inda Al-Imam Al-Shatibi*. Beirut: International Institute of Islamic Thought.

Al-Saffar, Hassan. (2018). *'Aqliyat al-tahrim wal-tanfir min al-din (The mentality of prohibition that made people reject religion)*, www.saffar.org/?act=artc&id=4072.

Al-Tahanawi, Zafar. (1984). *Qawa'id fi 'Ulum Al-Hadith*, Halab: Maktab Al-Matbu'at Al-Islamiyah.

Auda, Jasser. (2018). *Naqd Nazariyyat Al-Naskh (A Critique of the Abrogation Theory).* Beirut: Al-Shabakah Al-Arabiyyah, 2014 (translated to English and published by the Islamic Foundation, UK, Kube Publishing.

Auda, Jasser. (2021). *Re-envisioning Islamic Scholarship: Maqasid Methodology as a new Approach*. Wales: Claritas.

Auda, Jasser. (2008) *Maqasid al-Shariah as Philosophy of Islamic Law: A Systems Approach*. London: International Institute of Islamic Thought.

Copyright © 2022 JCMS

Auda, Jasser. (2010). "Aisha's Critique of Authentic Hadith Content via Quranic Universals, Proceedings: *IIIT Scholars Summer Seminar*, Virginia, (also available on jasserauda.net, scribd.com, etc.).

Bakar, Osman. (1998). *Classification Of Knowledge In Islam A Study In Islamic Philosophies Of Science*. Cambridge: Islamic Texts Society.

Barnes, J. (1976). *Introduction to Aristotle: The Nicomachean ethics* ('Ethics'). Harmondsworth: Penguin .

El-Messiri, Abdel-Wahab. (2006). *Epistemological Bias in the Social and Physical Sciences*. London - Washington: IIIT.

Ibn Hazm. (n.d) *Maratib al-ulum*. manuscript. N. p.

Ibn Khaldun. (2015). *The Muqaddimah: An Introduction*. trans. Franz Rosenthal، Princeton Classics.

Ibn Sina. (n.d) *Risalah fi aqsam al-ulum al-'aqliyah*. (manuscript) Cairo: Dar al-Nashr.

Ibn Taymiyah, Ahmad. (n.d). *Al-Musawada*. Ed. M. Mohieldin Abdulhameed. Cairo: Al-Madani.

Kamali, Mohammad Hashim. (2012). *Maqasid Al-Shariah, Ijtihad and Civilisational Renewal*. International Institute of Islamic Thought & International Institute of Advanced Islamic Studies.

Qutb, Sayyid. *In the Shade of the Quran* (Fi Dhilal Al-Quran) Tafsirzilal. wordpress.com/2012/06/05/english-language

Rida, Mohammad Rasheed. (2005). *Tafsir Al-Manar*. Cairo: Mathba'ah al-Manar.

Rida, Mohammad Rasheed. (w.d). *Al-Wahi Al-Mohammadi - Thubut Al-Nubuwwah bil-Qur'an*. Cairo: Mu'asasat Izziddin.

Schacht, Joseph. (1950). *Foreign elements in ancient Islamic law*. J. Comp. Legis. & Int'l L. 3d ser., 32, 9.

Subhani, Mohammad Asad. (2000). *Im'an Al-Nazar fi Nizam Al-Ayat wal-Suwar*. Azamgarh: Nizamul-Quran lil-Nashr.

Copyright © 2022 JCMS